تقديم

المدح في اللغة هو الثناء ، قال ابن منظور في اللسان : المَدح نقيض الهجاء، وهو حُسن الثَّناء [١] .

والمدح هو ذكر المحاسن ، وهو الثناء بذكر الجميل ، والمدح لا يستلزم المحبة دائما ، فالمدح هو إخبار مجرد ، وقيل المدح هو ذكر المحاسن بمقابل وبدون مقابل ، ويعتبر غرض المدح من أهم الأغراض التي قال فيها شعراء الجاهلية شعرهم؛ ذلك أن الإعجاب بالممدوح والرغبة في العطاء تدفعان الشاعر إلى إتقان هذا الفن من القول، فيسعى الشاعر إلى قول الشعر الجيد الذي يتضمن الشكر والثناء [٢]، والصفات التي يُمْدَحُ بها الممدوح هي: الكرم والشجاعة ومساعدة المحتاج والعفو عند المقدرة وحماية الجار والعقل والعدل إلى غير ذلك من الفضائل الإنسانية [٣]، ومعظم شعراء الجاهلية قالوا شعراً في هذا الغرض .

أما عن نشأة هذا الفن الشعري فيرى بعض النقاد أن هذا الفن : "لم يكن هذا الباب من بين أبواب الشّعر العربي في أوّل نشأته، و أكبر الظّنّ أنّه تأخّر في الوجود عن كثير من فنون الشّعر التي يتغنّى فيها الشاعر بعاطفة قديمة شخصيّة "[٤] ،ولكن البعض لم يتفق مع هذا الرأي ، ورأى أنّ المدح يرجع إلى أقدم ممّا ذكره الدكتور بدوي [٥] .

وهو فن جميل راق يعبر عن المحبة الصادقة ،في أغلب الأحيان ،والتقدير العميق من الشاعر لممدوحيهِ ، إلا أن " التكسب بالشعر أثر في مكانة المدح عند عرب الجاهلية فبعد أن كان الشاعر لديهم أرفع منزلة من الخطيب ، جعله التكسب بالشعر أقل مكانة من الخطيب " [٦] ، "وعمت البلوى معظم الشعراء فأصبحوا يستجدون بشعرهم الخلفاء والملوك" [٧] ، إلا أن

---

(١) اللسان ، (٢: ٥٩٨) .

(٢) المدح في الشعر العربي القديم نشأته وتطوره وشروطه وبناء قصيدته ، للباحث محمد شرفبياني ، ٢ ، رسالة دكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات طهران (مايو) ٢٠١٠م .

(٣) ينظر : نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ،٢٠ ، مطبعة الجوائب ،١٣٠٢ هـ .

(٤) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د/ أحمد أحمد بدوي ،١٧٧ ، دار نهضة مصر ، ط السادسة ٢٠٠٤ م .

(٥) المدح في الشعر العربي القديم نشأته وتطوره وشروطه وبناء قصيدته ، للباحث محمد شرفبياني ، ٣ ، رسالة دكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات طهران (مايو) ٢٠١٠م .

(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق القيرواني، ٥٠، مطبعة السعادة ، ١٩٠٧ م.

(٧) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د/ أحمد أحمد بدوي ،١٧٨.

الرفاعي ليس من هذا النوع من الشعراء ، فهو شاعر حر إذا أحب شخصا واقتنع بمحاسنه مدحه دون انتظار عطاء أو مكافأة ، فقد مدح قادة الوطن عن حب واقتناع ودون لقاء بهم ، وكذلك له مدائح قالها في العلماء لاسيما جده الذي سمي الشاعر على اسمه وكذلك مدح أصدقاءه ، وقد اتسمت جميع هذه المدائح بصدق العاطفة ، ويشهد لهذا التصوير البياني في شعره على نحو ما سيتضح في هذا الفصل الذي قسمته مبحثين .

أ _ يقول هاشم الرفاعي في مدح رئيس الوزراء الأسبق مصطفى النحاس [1] :

دُمْ لِلْكِنَانَةِ سَيْدًا وَعَمِيـــدًا ... يَا رَافِعًا عَلَمَ الكِفَاحِ مديـدًا
حيّيتَ مِنْ بَطَلٍ تَطَاوَلَ عَزْمُـهُ ... بأسًا على أعداءِ مَصْرَ شَدِيدًا
هَذَا هَوَ الوَادِي جريحٌ حائـــرٌ ... يبكِي ويندبُ مجدَهُ المَفْقُـودَا
يرجُو النجاةَ عَلَى يَدَيْكَ وَإِنَّـهُ ... يدْعُوكَ مُعْتَزِمًا لَكَ التَّأْيِيـــدَا

في هذه الأبيات يوجه الرفاعي خطابا إلى مصطفى النحاس الزعيم التاريخي للوفد ورئيس وزراء مصر الأسبق في العهد الملكي ، وقد أحبه الرفاعي حبًا شديدًا ، مما دفعه إلى مديحه وتخليده في شعره ، فهو في هذه الأبيات يدعو الله – عز وجل – له بدوام العزة والسيادة ، ومحييا إياه على جميل خصاله وأفعاله من عزمه وبأسه على أعداء مصر ، فهو الذي تعلقت به آمال الشعب لاستعادة أمجاد الوطن التي تاهت .

أما من حيث التصوير البياني في الأبيات ، فقد استهلت هذه المقطوعة بالاستعارة التي صاحبت أسلوبي الأمر في بداية الشطر الأول ، والنداء في بداية الشطر الثاني حيث قال الشاعر :

دُمْ لِلْكِنَانَةِ سَيْدًا وَعَمِيـدًا ... يَا رَافِعًا عَلَمَ الكِفَاحِ مديدًا

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ٢٧٨ .

واختيار الشاعر أسلوب الأمر في صدر القصيدة يعد من حسن الاستهلال ؛ لأن هذا الأسلوب به إثارة للنفوس وإعداد لها للتلقي وسماع الإنشاد وإيحاء بما يمور في النفس من مشاعر متدفقة.

وقد خرج أسلوب الأمر هنا إلى معنى الدعاء لاستحالة أن يأمر الشاعر ممدوحه بالدوام ، فهذا مما لا يملكه البشر ، وإنما هو تضرع للخالق – عز وجل – بأن يحفظ هذا الزعيم لوطنه وشعبه .

وفي الشطر الثاني يدعم الشاعر مدحه لهذا الزعيم باستخدامه لأسلوب النداء ليعضد أسلوب الأمر في الإسهام بدور فعال في هذه الصورة ، وقد آثر الشاعر أداة النداء (يا) من بين باقي الأدوات الأخرى ؛ وذلك للإشارة إلى علو منزلة الممدوح ، وفي تعانق أسلوبي النداء والأمر بهذا الشكل الذي جاء عفو الخاطر ودون تكلف دليل على صدق مديح الشاعر وحبه لهذا الممدوح ؛ لأن هذه الأساليب " من صور الكلام الهادية إلى نفوس تمور في داخلها حاجات ملحة "[1] ، والتي تصور إحساس الشاعر وتنقل أدق اختلاجاته .

أما الاستعارة في البيت فقد جاءت في الشطر الثاني في قوله : (يا رافعا علم الكفاح مديدا) فقد جعل الرفاعي للكفاح علما حسيا يرفعه الممدوح ، وذلك على سبيل الاستعارة .

وفي البيت الثاني يجسد الشاعر عزم الممدوح في صورة حسية قائلًا :

حيّيتَ مِنْ بَطَلٍ تَطَاوَلَ عَزْمُـهُ بأسا على أعداءِ مَصْرَ شَدِيدَا

فالشاعر يجسد عزم الممدوح ويصوره بصورة ارتفاع قامة عزمه في صورة حسية وكأنه يتطاول ويرتفع ، وقد نهضت الاستعارة المكنية بهذا التجسيد وأعانت الشاعر على هذا التصوير.

وعلى منوال التشبيه ينسج الشاعر صورته ، فيصور حاجة مصر إلى مثل هذا الممدوح فيقول :

هَذَا هَوَ الوَادِي جريحٌ حائـــرٌ يبكي ويندبُ مجدَهُ المَفْقُـودَا

(١) قراءة في الأدب القديم ، ٣٤١ .

يرجُو النجاةَ عَلَى يَدَيْكَ وَإِنَّهُ يدعوكَ معتزماً لَكَ التّأييـــدَا

فالشاعر يقرر حاجة الوطن إلى الزعماء المخلصين لاسيما وهو يعاني أشد المعاناة ،هذه المعاناة التي قررها الشاعر من خلال اسم الإشارة :(هذا) ، والضمير المنفصل : (هو) ، حتى يقرر حقيقة الوضع المزري الذي يكتنف الوطن .

ثم يعمد الشاعر إلى التشبيه ليشبه الوضع المزري لوادي النيل ، والمقصود هنا هو شعب مصر الذي يعيش على ضفاف النهر ، وهذا التعبير من باب المجاز المرسل بعلاقة المحلية كقوله – عز وجل – : " فَلْيَدْعُ نَادِيَه " [1] ، وقوله – تبارك وتعالى – : " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " [2]، حيث ذكر المحل وأراد الحال ، " وفي هذه الصورة ضرب من الإيجاز ؛ لأننا نكتفي بذكر المحل ونطوي ذكر الحال .... كما أنه يتضمن ناحية شكلية جماليه لا تخلف من إقناع هي هذا الجمال السانح في صورة ... وهذا وصف مجمل للعملية النفسية التي تتم عند محاولة التقاط الدلالة وتحديدها من اللفظ " [3].

وعليه فالرفاعي يشبه شعب مصر بإنسان جريح حائر ، والغرض من هذا التشبيه بيان الحالة المزرية التي يعاني منها المشبه ، ألا وهو شعب مصر ، وبالتالي فهو في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائه لكي ينتشلوه من هذا الوضع السيئ ؛ ولهذا قال الرفاعي :

يرجُو النجاةَ عَلَى يَدَيْكَ وَإِنَّهُ يدعوكَ معتزماً لَكَ التّأييـــدَا

ومما هو ملاحظ في البنية التركيبية الخاصة بهذا البيت أن الشاعر اعتمد في هذا البيت الفعل المضارع واسم الفاعل في ثلاثة مواضع ؛ للدلالة على شدة تعلق آمال الشعب بهذا الزعيم ، فهذه الآمال متجددة ومستمرة .

(١) (العلق : ١٨)
(٢) (يوسف : ٨٢)
(٣) التصوير البياني ، ٣٦٢ و٣٦٣ ، بتصرف .

ثم يذكر الشاعر موقفا مضيئًا لذلك الزعيم حينما مزق معاهدة ١٩٣٦ م التي كانت مع الاحتلال الانجليزي ويصور الشاعر هذا الموقف ويخلده في شعره قائلا[١] :

إِنَّا لَنَذْكُرُ بِالفَخَارِ وَبِالعُـــــلَا ... يَوْمًا سَيَبْقَى لِلْكَنَانَةِ عِيدَا

مَزَّقْتَ فِيهِ وَثِيقَةَ اسْتِعْبَادِنَـــا ... وَرَفَعْتَ لِلنَّصْرِ المبينِ بُنُودَا

وَوَقَفْتَ مِثْلَ اللَّيْثِ تُرْسِلُ صَيْحَةً ... شماءَ رَدَّدَها الملا تَرْدِيـــدَا

مِنْ أَجلِ مِصْرَ تقولُ قَدْ وقَّعْتُهَـا ... ولأَجلِ مِصْرَ أَرَى لها التَّبْدِيدَا

ومما هو ملاحظ بهذه الأبيات أن الصورة قد افتتحت بالتأكيد الشديد ، وذلك باستخدامه لـ (إنَّ) ولام التوكيد التي دخلت على الفعل (نذكر) ، وهذا يدل على امتلاء نفس الشاعر بهذه الحقائق والأمجاد واقتناعه التام ببطولة هذا الموقف الذي نقض فيه النحاس هذه الوثيقة ، وما زاد الأسلوب تأكيدًا استخدام الشاعر للفعل الماضي واعتماده عليه في أبيات هذه المقطوعة في مواضع : (مزقت) ، (رفعت) ، (وقفت) ، (رددها) ، (وقعتها) ، وهذه الأفعال أسهمت بشكل ملحوظ في تقرير هذه الحقائق التي ذكرها الرفاعي في هذا الموقف ، " فالفعل الماضي لا يدعنا نفكر في إمكان وقوع الحدث ، وإنما يلج بنا مباشرة في الحدث ذاته لنتأمل ما فيه من رهبة هذا الممدوح وعظمته ، وذلك من خلال إضفاء طابع الحكاية المروية على أفعاله ومناقبه " [٢].

هذا ولم تخل الصورة الكلية في هذه الأبيات من استخدام رائع لأدوات الصورة البيانية ، فقد كان للتشبيه دور بارز في تصوير المعنى في قوله :

وَوَقَفْتَ مِثْلَ اللَّيْثِ تُرْسِلُ صَيْحَةً ... شماءَ رَدَّدَها الملا تَرْدِيـــدَا

فالشاعر يشبه ممدوحه بالأسد وقد وفق الشاعر في اختيار عنصر التشبيه ؛ لأن هذا المقام وهو مقام الوقوف في وجه الأعداء يقتضي وصف ممدوحه بالشجاعة ، وقد وفَّى تشبيه الشاعر بهذا الوصف ، وأداه في صورة جميلة .

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ٢٧٨ .

(٢) خصائص التراكيب ،٢٦٨.

ومن هنا يتضح أن تكاتف البنية التركيبية مع التشبيه الذي هو من أدوات الصورة البيانية كان له دور في رسم ملامح الصورة الكلية ببراعة واقتدار ، ومن هنا أدى الشاعر غرضه وصور مجد هذا الزعيم بأسلوب قوي جزل ، وفي نفس الوقت توشح بصورة جميلة .

ويقول في مدح الرئيس الأسبق محمد نجيب [1]:

أَمَلٌ تَحَقَّقَ فِي البلادِ عَسِيـــرُ ... قَدْ كَانَ فِي خُلْدِ الفَقِيرِ يَـدُورُ

لما أُعيد إلى الكنانة مجدُهـــا ... وانْجَابَ عنها الليل والدَّيْجُورُ[2]

وأطلَّ عهد مشرق الجنباتِ قد ... سَطَعَ السنى بقدومه والنُّـورُ

بعث الإلهُ إلى البلاد نجيبَهـــا ... فتحطَّمت للمفسدين صُخُـورُ

يا رُبَّ عانٍ قد تحرَّر إذ بــدا ... فجرٌ بأرجاءِ البلاد مُنِيـــرُ

قد ذَاقَ طَعْمًا للسعادِة مُعْدَمٌ ... ومضى لمبتسمِ الحياة فَقِيـــرُ

الريف يا مَرْعِي أُعِزَّ وَقَبْلكـم ... ما كان للإصلاحِ فيه وَزِيـــرُ

لما مشيتَ به استردَّ حياتَـه ... وغدا الرخاءُ يسير حَيْث تَسِيرُ

فإذا لقيتَ زعيم مِصر فقل لَـهُ ... أنشاصُ يملؤها الغداة سُـرورُ

فرحت بفوزك بالرئاسةِ فرحة ... في كل قلبٍ عَاشَ وَهْوَ أَسِيـــرُ

يا من طردتَ من القناةِ عدونا ... فارتدَّ وهو الخائبُ المَدْحُـــورُ

يا قائد الوادِي إلى العلياءِ قد ... سعدتْ بنيلِ الفخرِ سَنْدَنْهُـــورُ

لما أتيتَ لها كغيثٍ هاطـــلٍ ... سار الرضا والخيرُ حَيثُ تَسِيـــرُ

سويت بين مواطنٍ ومواطـــنٍ ... لم يبق فينا خادمٌ وَأَجِيـــــرُ

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ، ٢٩٢.

(٢) دَيْجُور، وَهُوَ الظَّلَامُ ، اللسان ، (٤ :٢٧٨) .

فاقْهَرْ ضَلالَ الحاسدينَ ومكرَهم واظْهَرْ عليهم إنك المنصُـــــورُ

هذه الأبيات جزء من قصيدة للرفاعي بعنوان توزيع الملكية ، يمدح فيها الشاعر الرئيس الأسبق محمد نجيب ، ويتحدث الشاعر عن تحقق الأمل الذي تمناه المصريون ، هذا الأمل الذي كان يدور في خلد الشاعر ، ألا وهو: تحرر الوطن من القيود التي كبلته ،وهذا التحرر قد أتى من خلال الثورة التي قام بها جيش مصر ، والتي قادها الرئيس محمد نجيب ، هذه الثورة التي أعادت إلى مصر مجدها وحررت أبناءها من ذل القيود والفقر ، ويحيي الشاعر المهندس / سيد مرعي وزير الإصلاح الزراعي في حكومة الثورة ، ويوصيه بأن يبلغ سلام أهل قرية أنشاص إلى الرئيس ، وقد فرح أهل هذه البلدة بفوزه بالرئاسة ، لاسيما وقد أحبوه بعد طرده للإنجليز من قناة السويس ، وكذلك بعد تحقيقه للعدالة الاجتماعية وإزالة الفوارق الطبقية ، وفي البيت الأخير يشير الشاعر إلى الخلافات بين الرئيس محمد نجيب وخصومه داخل مجلس قيادة الثورة ويتمنى الشاعر النصر للرئيس على خصومه [1].

وقد بدأ الشاعر في نسج ملامح هذه الصورة بتأكيد محاسن ومزايا ممدوحه من خلال البنية التركيبية التي تؤكد وتقرر هذه المحاسن والمزايا .

ولتجسيد العهد المضيء الذي أشرق على البلاد بقدوم الممدوح رئيسًا للبلاد يستخدم الشاعر الاستعارة قائلًا :

وأطلَّ عَهْدٌ مشرقُ الجناتِ قَد سَطَعَ السَّنَى بِقُدُومِهِ والنُّورُ

فالشاعر يجسد عهد الرئيس الأسبق محمد نجيب ، وكأنه شيء حسي منير أضاء البلاد وسطع السنى بقدومه ، وقد جاء هذا التجسيد من خلال الاستعارة المكنية التي لها تفنن كبير في هذه الباب .

وكذلك أيضًا استخدم الشاعر الاستعارة المكنية لتجسيد ظلم وفساد من سبقوا الرئيس الأسبق محمد نجيب فقال :

بَعَثَ الإلهُ إلى البلادِ نجيبَها فتحطَّمَتْ للمفسدينَ صخورُ

(١) حاشية ديوان الشاعر ،٢٩٤ .

فالشاعر يصور فساد هؤلاء الحكام ، وكأن هذا الفساد قد تحول إلى صخور صلبة قاسية ، وفي هذه الصورة إيحاء بعتو هذا الفساد وشدته ، ولكن على الرغم من ذلك فقد تحطمت هذه الصخور بقدوم الرئيس محمد نجيب رئيسًا للبلاد .

ويواصل الرفاعي النسج على منوال الاستعارة ، ولكن هذه المرة مع الاستعارة التصريحية فيصور محاسن الممدوح من زاوية أخرى فيقول :

يَا رُبَّ عَانٍ قَدْ تحرَّر إذ بَـدَا فَجْرٌ بأَرْجَاءِ البلادِ مُنِيرُ

فالشاعر يصور حلول عهد الثورة بصورة حلول الفجر الذي أنار أرجاء البلاد، ولاسيما وقد تحرر المظلومون من نظام الإقطاع والفساد ، وقد نهضت الاستعارة التصريحية بهذا التصوير ، وقامت به على الوجه الأمثل .

والشاعر هنا قد استعمل (رب) في معنى الكثرة ، فالشاعر يريد أن يقرر أن هذه الثورة كثيرا ما حررت المظلومين ، ومن هنا حسن استخدام (رب) في هذا الموضع ؛ لأنها " حين تقع بمعنى الكثرة يكون موقعاً حسناً ممتازاً ، فهي تشير إلى أن أسلوب الكلام يجري على طريقة لا مبالغة فيها ولا تزيّد ، وهذا أمكن وأوقع وأدخل إلى قرار النفس وأنفذ "[1].

ويعود الشاعر للعزف على أوتار الاستعارة المكنية فيقول :

قد ذَاقَ طَعْمًا للسعادِةِ مُعْدَمٌ ومضى لمبتَسَمِ الحياةِ فَقِيـــــرُ

فقد جعل الرفاعي للسعادة طعمًا يذوقه الفقراء ، وكأن السعادة صارت طعامًا لذيذا ، أو شرابا عذبا يذوقه الفقراء ، وهنا تحولت السعادة عن كونها شعورا معنويا إلى حالة جديدة ، وقد جاء هذا التحويل عن طريق الاستعارة المكنية .

وكذلك كان للاستعارة المكنية دورها في بث الروح فيما لا روح فيه فيقول :

الريفُ يا مَرْعِي أُعِزَّ وَقَبْلكـم ما كانَ للإصلاحِ فِيهِ وَزِيـــــرُ

فهنا يصور الشاعر الريف في صورة إنسان قد مات من الظلم والقهر ثم عادت له الحياة مرة أخرى ، وسرت فيه الروح بعد قيام الثورة ، وهنا قامت الاستعارة المكنية

(١) قراءة في الأدب القديم : ٢١٨ .

على "بث الحياة فيما لا حياة فيه ، وإشاعة نوع من الألفة بين الإنسان وعناصر الكون الأخرى ، والامتزاج والانصهار والتفاعل التام بين الإنسان ومعطيات الكون "[1] .

ثم ينتقل الرفاعي إلى توجيه مديحه إلى الرئيس الأسبق محمد نجيب فيخاطب الوزير سيد مرعي قائلًا له :

فإذا لقيتَ زعيم مِصر فقل لَـهُ أنشاصُ يملؤها الغداة سُـــرورُ

وهنا يقيد الشاعر المسند بأداة الشرط " إذا " ، مما يدل على أمله الشديد أن يوصل الوزير هذه الرسالة إلى رئيس الجمهورية ، هذه الرسالة التي يملؤها الفرح والترحاب .

ومن خلال النداء يعدد الرفاعي مناقب الممدوح فيقول :

فرحت بفوزك بالرئاسةِ فرحة في كل قلبٍ عاش وهو أَسِيـــرُ

وهنا نلحظ تحولا في توجيه الخطاب من الشاعر ، فبعد أن كان يتحدث عن الممدوح بصيغة الغائب توجه إليه بالخطاب مباشرة وهو ما يسميه البلاغيون بالالتفات [2]، وتكمن براعة هذا الأسلوب " حين ينتقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ، فيعمل على تجديد نشاط السامع ، وإيقاظ مشاعره وتنبيه حسه ، فيقبل إلى الكلام ويصغي إليه ، وعندئذ يقع في نفسه موقعاً حسناً ، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة "[3].

وفي صورة رائعة جميلة يعانق الرفاعي بين التشبيه والاستعارة فيقول :

لما أتيتَ لها كغيثٍ هاطـــلٍ سار الرضا والخيرُ حيث تَسِيـــرُ

فالشطر الأول من البيت به صورة تشبيهية رائعة ، المشبه فيها هو الممدوح ، والمشبه به هو المطر الغزير ، ووجه الشبه هو العطاء الغزير بلا حساب وعموم الخير والبركة عند المشبه والمشبه به ، ومن هنا كان للتشبيه دوره الفعال في النسج والتصوير .

(١) التصوير البياني في شعر المتنبي . ١٩٣ .
(٢) الالتفات :هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، الإيضاح (١، ٧٢) .
(٣) ينظر: علم المعاني .د / بسيوني فيود . ٢٦٥ .

أما الشطر الثاني فقد تضمن كناية عن نسبة السرور والرضا لكل البلاد التي مر بها هذا الممدوح .

وعن الرئيس الأسبق أنور السادات – رحمه الله – يقول الرفاعي[1] :

نورٌ أضاءَ معالمَ الجنبـــــــاتِ ... وسنًى بهذي الأربعِ النضـــراتِ
لما طلعتَ بِهَا تَدَفَّقَ بِشْرُهُـــــا ... يبدي الوداد بأصدقِ الآيـــاتِ
والكلُّ يَهْتِفُ مِنْ صَمِيـــمِ فؤادِهِ ... يا مرحبا بالقائدِ السَّـــــاداتِ
يا قاضيا بالحق فيمنْ أَفْسَـــدُوا ... حُكْماً لنا في سالفِ السنـواتِ
يمناكَ كَمْ وَضَعَتْ غَدَاةَ وُثُوبِكُمْ ... في صرحِ وادي النيلِ من لَبِنَـــاتِ
أنا لَسْتُ أَنْسَى يَومَ ثورةِ جيشِنَا ... صَوْتًا قَوِيًا صَادِقَ النَبَـــــرَاتِ
قَدْ رَنَّ في المذياعِ صَوْتُكَ حَامِلاً ... بُشْرَى بِعَهْدٍ دَافِقِ الحَسَنَـــاتِ
قَلَمُ التحرر أنت صاحبُ غَيْثِـــهِ ... يهدي لمصرَ عَجَائِبَ النَفَثَـــاتِ
تَرْمِي الخَئون بلاذع من جَمْـــرَةٍ ... حتى يَعُودَ بدائمِ الحَسَـــــرَاتِ
وَتَخُطُّ للنيلِ الطريقَ إلى العُـــلا ... فَنَرَى بريقَ المجدِ في الكَلِمَـــاتِ

وهذه الأبيات جزء من قصيدة الرفاعي سماها باسم : (أنور السادات) ؛ لكي يحيي فيها الزعيم أنور السادات ، وقد كان آنذاك من كبار رجال ثورة يوليو ، وقدم إلى أنشاص وصلى الجمعة بمسجدها ، مما دعا هاشم الرفاعي أن يحييه بهذه القصيدة ، وأن يرحب بطلته التي أضاءت جنبات البلدة مما أسعدهم ودعاهم أن يبدوا الترحيب بالضيف الزعيم .

[1] ديوان هاشم الرفاعي ، ٣٠١ .

واستطرد الرفاعي في مديحه للسادات – رحمه الله – بذكر بعض مناقبه ومحاسنه ، منها قضاؤه هو وزملاؤه على عصبة الفساد التي حكمت مصر قبل ثورة يوليو ، ومنها جهوده هو ورفاقه في بناء مستقبل جديد لمصر ، ثم سلط الرفاعي الضوء على الحدث الأبرز الذي قام السادات ببطولته ، ألا وهو : تلاوته لأول بيان لثورة يوليو في الإذاعة المصرية حاملا البشرى ببدء صفحة جديدة من تاريخ الوطن .

ولرسم ملامح الصورة البيانية في هذا المديح أبحر الرفاعي مباشرة في عالم الاستعارة فاستهل الصورة بهذا الفن لما له من قدرة في التفنن والإبداع فيقول الشاعر :

نورٌ أضاءَ معالمَ الجنبـــــــاتِ وسنىً بهذي الأربعِ النضـراتِ

لما طلعت بِهَا تَدَفَّقَ بِشْرُهـــــا يبدي الوداد بأصدقِ الآيـاتِ

فالشاعر يعبر عن الفرح والسرور والبشر الذي عم البلدة بقدوم هذا القائد من خلال التشبيه البليغ في صدر هذه المقطوعة بقوله : (نور) والتقدير هو نور ، وهذا التشبيه يصور هذا الضيف في صورة مضيئة أضاءت جهات القرية كلها .

بعد هذا التشبيه البليغ أتت استعارة جميلة في البيت الثاني في قوله : (تدفق بشرها) التي من الممكن أن تكون استعارة تبعية في الفعل (تدفق) مبالغة في تصوير سريان البشر والسرور ، ومن الممكن أن تكون استعارة مكنية ينطوي خلفها تشبيه البشر بغيث هطال .

ثم أمعن الرفاعي في هذا التخييل ، فأضفى الروح الإنسانية على البشر ، وجعلته يعبر عن مشاعره ، ويبدي المحبة والوداد ، وكان هذا الإضفاء من خلال الاستعارة المكنية التي لها مفعول السحر في تحويل المعاني إلى أحياء لها شعور البشر .

ولا يزال الرفاعي ينسج على منوال الاستعارة فيقول :

والكل يهتف من صميـــمِ فؤادِهِ يا مرحبا بالقائد الســـــاداتِ

حيث عبر الرفاعي عن صدق ترحيب أهل البلدة بالضيف القائد من خلال الاستعارة التي جعلت الهتاف يخرج من القلب مباشرة .

ثم يعود الشاعر مرة أخرى إلى ميدان الاستعارة فيصور جهود الممدوح في بناء مستقبل الوطن فيقول :

يمناك كم وضعت غَدَاةَ وُثُوبِكُمْ في صَرْحِ وَادِي النيلِ مِنْ لَبِنَـاتِ

حيث استعار الشاعر لهذا البناء المعنوي بناءً حسيًا متخيلًا تشييد الممدوح صرحا للوطن من خلال اللبنات التي وضعها بيمينه ، وقد نهضت الاستعارة بهذا التصوير الرائع الجميل ، وفي إيثار الشاعر التعبير بلفظ : (يمناك) إيحاء بشرف هذا البناء وبركته ، وهذا أبلغ مما لو قال: (يداك) ، دون أن يخصص اليد باليمين التي تتميز بالقيام بأشرف الأعمال .

ومن خلال الاستعارة أيضا يعبر الرفاعي عن منقبة من أهم مناقب الممدوح ، ألا وهي تلاوته لأول بيان لثورة الثالث والعشرين من يوليو ، فيقول الشاعر :

أنا لَسْتُ أُنسَى يَومَ ثورةِ جيشِنَا صَوْتًا قَوِيًا صَادِقَ النَبَـــــرَاتِ

قَدْ رَنَّ في المذياعِ صَوْتُكَ حَامِلاً بُشْرَى بِعَهْدٍ دَافِقِ الحَسَنَـــاتِ

حيث أضفت الاستعارة المكنية الروح على صوت الممدوح مما جعلته جديرا بأن يوصف بالصدق ، وأيضا جعلته يحمل البشرى لأبناء الوطن .

ومن خلال الاستعارة أيضا يصور الرفاعي دور السادات في رئاسته لتحرير جريدة الجمهورية التي أسسها رجال الثورة فيقول:

قلم التحرر أنت صاحبُ غَيثِـهِ يهدي لمصرَ عَجَائِبَ النَفَثَـــاتِ

حيث جعلت الاستعارة للقلم غيثا مما يوحي ببثه للخيرات والبركات التي يعم نفعها لأهل مصر جميعا ، ليس هذا فحسب بل أضفت الاستعارة المكنية الروح في هذا القلم ، فجعلته يقدم الهدايا للوطن الغالي: (مصر) ، وعبر الرفاعي عن هذه الهدايا بقوله : (عجائب النفثات).

وكذلك استعان الرفاعي بالاستعارة ليصور مهاجمة السادات للفساد والخيانة في قوله :

ترمي الخئون بلاذع من جَمْـــرَةٍ حتى يَعُودَ بدائمِ الحَسَـــــرَاتِ

حيث عبر الرفاعي عن هذه المهاجمة بالاستعارة التبعية في الفعل : (ترمي) ، وكأن الحرب على الفساد قد تحولت من حرب معنوية إلى حرب حسية ، يستخدم الممدوح فيها أسلحته في مقاومة الفاسدين والخائنين .

ثم يختتم الرفاعي صورته بهذه الاستعارة التمثيلية البديعة حيث يقول الرفاعي :

وتخطُّ للنيلِ الطريقَ إلى العُـــلا فَنَرَى بريقَ المجدِ في الكَلِمَـــاتِ

وتكمن القيمة التصويرية في هذه الاستعارة أنها تصور دور السادات في استشراف ورسم مستقبل البلاد من خلال رئاسته لتحرير جريدة الجمهورية في صورة من يرسم الطريق لمسافر حائر ، وهو النيل الذي عبر به الشاعر عن الشعب المصري على طريقة المجاز المرسل لعلاقة المحلية .

وكذلك الشطر الثاني في هذا البيت الختامي به استعارة مكنية حولت الكلمات التي يشرف السادات على بثها لأبناء الشعب إلى مجوهرات ودرر لها بريق يتلألأ ، وتهدف هذه الاستعارة إلى تصوير مدى قيمة هذه الكلمات ، ودورها في بناء نهضة الوطن .

وهنا نرى كيف يطلق الشاعر العنان لخياله من خلال الاستعارة حتى يمتدح ممدوحيه بأبلغ الصور ، وأسلس العبارات ، وأجمل الألفاظ والأساليب .

ثانيًا : مديح العلماء :

يقول في مديح الإمام الأكبر عبد المجيد سليم [1] ـ رحمه الله ـ[2]:

الكونُ أشرقَ أرضُه وسمـــاؤُه وَتَضوَّعَتْ طِيبًا بِكُمْ أَرْجَاؤُه

والبلبلُ الصداح في روض المنى أسرَ المشاعرَ والقلوبَ غناؤُه

وسمعتُه بين الغصـونِ مردّدًا والبِشْرُ فوقَ الوجهِ يَقْطُرُ مَاؤُه

يا قومِ نالَ القوسَ باريها فَـــلَا عذراً لقلبٍ لا يفيضُ هَنَـــاؤُه

(١) الشيخ / عبد المجيد سليم الحنفي المصري: مفتي الديار المصرية. تخرج بالأزهر، وأخذ عن الشيخ محمد عبده. وتقلب في مناصب التدريس والقضاء والافتاء. وولي مشيخة الأزهر مرتين. والافتاء نحو عشرين عاما. ويقال: أصدر ما يقارب ١٥ ألف فتوى، بينها ما يرجع إليه الفقهاء والقانونيون، الأعلام ، الزركلي ، (٤: ١٤٩) .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ، ٤٣٤.

يمدح الشاعر الإمام الراحل من خلال ذكر صدى وانعكاس الخير الذي عم الكون بسبب فضائل هذا الممدوح الجليل ، فالأرض تضوعت ، والسماء أشرقت ، والأرجاء تعطرت بالطيب ،حتى الطيور صدحت وتغنت وتفاعلت مع هذه الفضائل ، وفرحت بنيل هذا العالم الجليل لهذا المنصب الهام منصب مشيخة الأزهر الشريف بكل جدارة واستحقاق .

وقد افتتحت هذه الصورة بهذه الاستعارة التي بالغ فيها الشاعر في تصوير فرح الناس والأجواء ،بل والكون ، بتولي هذا العالم الفاضل منصب الإمام الأكبر لمشيخة الأزهر الشريف ، هذا المنصب الذي يتأثر به الناس ويتفاعل معه الكون ؛ لهذا استعار الشاعر لتصوير هذا التفاعل إشراق الأرض والسماء ، وتضوع الطيب في الأرجاء .

ثم من خلال الاستعارة المكنية يبث الرفاعي الروح الإنسانية في طائر البلبل حتى يجعله من المتفاعلين مع فرح الكون بتولي الممدوح منصب شيخ الأزهر الشريف ،فقد جعل الشاعر البلبل مغنيًا يأسر القلوب والمشاعر بغنائه ليس هذا فحسب ، بل يشهد بجدارة واستحقاق هذا العالم الجليل لهذا المنصب الذي شرف، ويتمثل بالمثل السائر المشهور " نال القوس باريها " ،حتى يشهد بجدارة نيل هذا الممدوح لهذا المنصب ، وهنا نرى أن الشاعر من خلال الاستعارة المكنية " يحرص على إحياء الأشياء من حوله ، وتأنيسها و مخاطبتها ، وخلق الإحساس الإنساني فيها ، فتبكي لأوجاعه ، وتحن لحنينه ، وتسمع أقدس عواطفه ، وأنبل اختلاجاته "[1].

ثالثًا : مديح الأصدقاء

يقول الشاعر في مديح أحد أصدقائه ، وهو السيد إبراهيم رضوان [2] :

أديبٌ أِي وَرَبي لا يُدَانَـــى ... وبَحْرٌ مِنْ عُلُومٍ لايُبَـــارَى

يَفُوقُ الكلَّ عِلمًا واطلاعـًا ... وتبيانا لنا أو قل منـارَا

يضيء لنا الطريق إذا أخذنا ... بِنُصْحٍ فَهْوَ نُورٌ ليسَ نَارَا

(١) دلالات التراكيب ، ٢٦٥.

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ، ٤٢٩ .

يَسُودُ الناسَ بالأخلاقِ جَمْعًا فَقَدْ أَخَذَ الكمالَ له شِعَارَا

لكم أهواهُ من قلبي وروحي وَأَدْعُو خالِقِي ألا يُضَـــارَ

في هذه الأبيات يمدح الشاعر صديقه ذاكرًا محاسنه ومناقبه وبادئًا بأعلى الأوسمة التي يمكن أن ينالها الإنسان ،ألا وهي : أوسمة العلم ، فذكر الشاعر أن صديقه ذو اطلاع واسع ، وعلم غزير ، وبدأ الشاعر بعلم الأدب ؛ لأنه علم يعكس سلامة الذوق ورقة الطباع ، وهي من الصفات التي تستحق المديح عن جدارة ، ثم ذكر الشاعر أن نفع هذا العلم الواسع ليس ذاتيًا بل هو نفع متعد إلى أصدقائه ، فلا يبخل عليهم بتعليم أو نصح ، وهذا يدل على أن علم الممدوح علم نافع تعدى نفعه إلى الناس .

ثم ذكر الشاعر صفة للممدوح هي لازمة العلم لا تجنى الثمرة من وراء العلم إلا إذا قرن بهذه الصفة ،ألا وهي : صفة الخلق الحسن الذي بالغ الرفاعي في وصفه حتى وصفه بالكمال ، ثم ختم الرفاعي هذه الأبيات بالتعبير عن محبته لصديقه ودعائه له أن يحفظه الله من كل سوء .

وقد بدأ الشاعر تصويره لهذا المديح بالتشبيه البليغ في الشطر الثاني من البيت الأول حيث قال :

أديبٌ أَي وَرَبي لا يُدَانَـــى وبَحْرٌ مِنْ عُلُومٍ لا يُبَـــارَى

حيث استعان الشاعر بصورة البحر حتى يصور سعة وغزارة علوم الممدوح ، ولتصوير مدى اطلاعه وتعمقه في العلوم والأدب ، كل ذلك من خلال هذا الفن الراقي الذي يكاد يلامس الاستعارة .

وفي قول الشاعر

يُضيء لنا الطريق إذا أَخذنا بنصحٍ فَهو نورٌ ليسَ نارَا

استعارة تصور نفع الممدوح لأصدقائه بإرشاده ونصحه لهم ؛ لهذا استعار الشاعر للممدوح صورة المنارة التي تضيء الطريق للسفينة وتهديهم في ظلمات البحر .

وقوله: (فهو نور ليس نارًا) احتراس أو تكميل [1]؛ لأن الشاعر لما وصف ممدوحه بأنه يضيء الطريق لأصدقائه احترس أن يتوهم متوهم أنه قد يضر بأصدقائه ؛ لأن الإنارة سلاح ذو حدين ؛ لهذا كان من المناسب أن يدفع الشاعر هذا التوهم المحتمل بهذا الاحتراس أو التكميل .

وفي البيت الرابع تأتي المبالغة في قول الشاعر :

يسود الناس بالأخلاق جمعا فقد أَخَذَ الكمالَ لَه شعارَا

حيث إن وصف الشاعر للممدوح بالكمال به مبالغة غير ممكنة عقلًا أو عادة ، والعلماء في قبول مثل هذا النوع من المبالغة مذاهب ، فمنهم من يرى أنها غير مقبولة كالخطيب القزويني الذي عنون للمبالغة في الإيضاح بقوله : " المبالغة المقبولة "[2] ، ومن العلماء من يرى " أنها مقبولة مطلقًا ؛ لأن خير الكلام ما بولغ فيه ، وأعذب الحديث أكذبه مع إيهام الصحة وظهور المراد "[2] ، وهذا ما فعله الرفاعي ، فلم يذكر أن صاحبه كامل ، وإنما ذكر أنه أخذا الكمال شعارًا أي هدفًا يقصده ويسعى لأجله .

ومن خلال هذه النماذج يتضح أن التصوير البياني للرفاعي في مقام المديح لم يعتمد في الأعم والأغلب منه على أدوات الصورة البيانية ، وكذلك على خصائص التراكيب المستمدة من علم المعاني ، بقدر اعتماده على المحسنات البديعية التي أكثر منها الشاعر في مدائحه ، فقد كان حريصا على حشد أكبر قدر منها في بعض هذه المدائح ، ومن ثم يتضح أن بعض هذه المدائح اتسمت بالمجاملة وضعف التجربة الشعرية ، وهذا لا ينفي اتسام بعض هذه المدائح بالقوة والجزالة وصدق المشاعر .

(١) الاحتراس أو التكميل : أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه (الإيضاح مع البغية ج ٢ ، صـ ٣٥٥).
(٢) السابق ٦١٢.
(٣) بغية الإيضاح ، عبد المتعال الصعيدي ،٦١٢ .